بسم الله الرحمن الرحيم

الفقه والتحديات المعاصرة[1]

الدكتور / عبد الرحمن بن حسن النفيسه

صراع الحضارات واقعة تاريخية نشأت بعد وجود الإنسان وانتشاره على الأرض، ومحاولته السيطرة عليها أو الاستئثار بالكثير منها· وربما يظل هذا الصراع قضية تلازم الإنسان في كل زمان وُجِدَ فيه ·

ولهذا الصراع الأزلي مظهران متلازمان : صراع علني تمثل في الحروب، وأشكال النزاع المتعدد حتى هلك من الإنسان خلق كثير ، وتشتت منه خلق آخر ، ومازال هذا الصراع ومظاهره ومخاطره تروع الإنسان في كل يوم، ففي العامين الماضيين قُتِلَ من دولة صغيرة أكثر من نصف مليون إنسان في مظهر يعجز الوصف عن تصوير شناعته ، وما زالت أنحاء كثيرة من المعمورة تشهد في هذا الوقت أنواعاً مختلفة من النزاع والحروب ·

وقد دلت الإحصاءات أن ما ينفقه الإنسان على الاستعداد للحرب أو دفعها عنه أضعاف ما ينفقه على غذائه وكسائه ، وأمور حياته · وتدل الدلائل على أنه لا يزال يتطلع إلى الحروب فيرى فيها شفاء علله وأمراض اقتصاده فيدمر ماصنعه ليعود إلى صنعه من جديد، ولا يهمه حينئذ أن يموت منه ما يموت·· وقد لا يغير من تفكيره هذا ما دام أنه يفتقد الإيمان بالحقائق والقواعد التي وضعها الله لعباده ، وأمرهم بالالتزام بها ·

المظهر الثاني - صراع مستتر يتعارك فيه الإنسان وهو صامت، وغالباً ما يكون هذا الصراع توطئة للصراع العلني · وقد تمثل هذا

---

[1] منشورات مجلة البحوث الفقهية المعاصرة

في أشكال مختلفة في مقدمتها "صراع الفكـر" ففي الماضـي كـان المدبر للصراع رجل أو رجالاً مكيـدة يظهـرون في صـورة من صـور المنافقين فيتسـللون إلى الأمـة في غفلـة منهـا فيسـتغلون صـدقها وعفويتها قبل أن تدرك حقيقتهم ٠

ولقد عرف التاريخ الإسـلامي الكثـير من الفتن بسـبب هـذا الصـراع حين اتخـذ شـكل "دعـاوى" تحـيزت لهـا فـرق وتعصـب لهـا أقـوام فعاشت الأمة تلك الدعاوى، وعانت منهـا في بعض أزمنتهـا، وحـدث ما حدث في تاريخها مما لسنا في حاجة إلى التذكير به بعد أن نجَّى الله الأمة منه ٠

وإذا كان الصراع في الماضي على هذا النحـو البسـيط، فـإن صـراع الفكر في الزمن المعاصر أصعب وأخطـر من سـابقه ، وذلـك بحكم التطـور الإنسـاني المعاصـر ومـانتج منـه من الاتصـال المباشـر، وتقارب المسافات و تشـابك العلائـق ، وتطلـع الإنسـان إلى الرفـاه والشره في حب الاستمتاع المادي مما يؤدي في الغـالب إلى تفجـر الصراع، والرغبة في السيطرة على المواقع عن طريق الفكر ٠

ومع أن هذا الصراع أصعب وأعقد من الحديث عنه في عجالة كهذه، إلا أنه واضح فيمـا تقـوم بـه اليـوم " وسـائل الفكـر المتنفـذة " من جهود، وما تقدمه من إغراءات من أجل هزيمـة ضـحاياها مسـتخدمة في كـل ذلـك طاقـات الإنسـان وإبداعـه في ظـل تطـور التقنيـة المعاصرة ٠٠ إن مجموعة من الأذكياء يستطيعون اليـوم هزيمـة أمـة بكاملها حين يصورون لها الوقائع على غير حقائقها، فتصـدقهم وهى لا تعـرف مـدى صـدقهم ، وتـأتمنهم وهي لا تعـرف مـدى أمـانتهم ، وتأخذ منهم وهي لا تعرف مدى إخلاصهم ٠

ومع أن هذا الصراع قد يكـون أقـوى من قـدرات الأمـة - أيـة أمـة - وأشد من طاقاتها إلا أنه غالباً ما ينهزم عندما تكون الأمـة قـد بلغت رشـدها فـأدركت حقيقتهـا واسـتوعبت ماضـيها، وعـرفت حياتهـا، وحسبت خطاها ٠

ثالثاً إن صراع اليوم يتخذ شـكلاً جديـداً يختلـف عن صـراع الماضـي فـ"الفرق الدعاوية " ربما لم تجد لها مكانـاً على النحـو الـذي كـانت عليه في الماضي فلهذا لجأت إلى الصراع عن طريق " التشــكيك " في الثوابت وزعزعة الإيمان بها وقـد اتخـذ هـذا التشـكيك مسـلكين متــوازنين تجــاه القــرآن الكــريم باعتبــاره المصــدر الأول للفقــه الإسلامي وتجاه السنة النبوية باعتبارها المصدر الثاني لهذا الفقه ٠

المسـلك الأول - تأويـل القـرآن الكـريم بمـا يخـدم أهداف أصحاب هذا الصراع وموجهيه ٠

ولأن الله تعالى يعلم بعلمه المطلق ما سيفعله هؤلاء في كل زمــان ومكان ، فقد أخبر عنهم ووصـفهم بـالزيغ والضـلال وبَيَّن أنهم بـذلك يبتغون الفتنة والشقاق عن طريق اتباع المتشابه من القرآن وتأويله بهدف التشكيك فيه قال تعالى : **هو الذي أنـزل عليـك الكتـاب منه آيات محكمات هن أم الكتـاب وأخـر متشـابهات فأمـا الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويلـه ومـا يعلم تأويلـه إلا اللـه والراسـخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا** (1)٠

وقد أوضـح المفسـرون أن المقصـود بالآيـات المحكمـات هي الـتي عرف تأويلها وتفسيرها ٠

أما المتشابهات فهي مما استأثر الله تعـالى بعلمـه دون خلقـه مثـل قيام الساعة والحروف المقطعة في أوائل السور (2)٠

وقد تصدى السلف الصالح للمشـككين فَــكَفَّروهم وأبـاحوا عقـابهم كما فعل ذلك عمر ابن الخطاب رضي الله عنه مع صـبيغ بن عسِـل حين قدم المدينة فجعل يسأل عن متشـابه القـرآن ٠ قـال أبـو بكـر الأنبـاري " كـان الأئمـة من السـلف يعـاقبون من يسـأل عن تفسـير الحروف المشكلات في القـرآن لأن السـائل إن كـان يبغي بسـؤاله تخليد البدعة وإثارة الفتنة فهو حقيق بالنكير وأعظم التعزير وإن لم يكن ذلك مقصده فقد استحق العتب بما اجترم من الـذنب إذ أوجـد

للمنافقين الملحدين في ذلك الـوقت سـبيلاً إلى أن يقصـدوا ضَـعَفةَ المسـلمين بالتشـكيك والتضـليل في تحريـف القـرآن عن منـاهج التنزيل وحقائق التأويل (3)٠

المسلك الثاني : الطعن في السنة :

لم يكن التشـكيك في القـرآن سـهلاً على النحـو الـذي تصـوره المشـككون خاصـة وهم يعرفـون مـا لـه من مكانـة في نفـوس المسلمين رغم تعدد لهجاتهم فلجئوا عندئذ إلى التشكيك في السنة باعتبارها المصدر الثاني للفقه الإسـلامي ٠ ويبـدو أن هـذا التشـكيك في أعلى درجاتـه في الـوقت الحاضـر رد على المطالبـة بتطـبيق الشريعة الإسلامية وقد اتخذ هذا التشكيك ثلاث طرق :

الأول- الاعـتراض على تـدوين السـنة: وقـد أوردوا في ذلـك عدداً من الأحاديث لتبرير اعتراضهم ٠٠ ولو فـرض جـدلاً صـحة بعض هذه الأحاديث، فـإن النهي كـان (موقوتـاً) بـزمن حين كـان القـرآن ينزل على رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم ممـا خشـي معـه أن تختلط الأحاديث بالقرآن فـالنهي إذاً عن كتابـة السـنة -على فـرض صحته- لم يكن لـ(ذات) الكتابة وإنما لـ(وقتها) ويؤيـد ذلـك عـدد من الأحاديث منها ما رواه الإمام أحمد في مسنده أن النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم قـام في النـاس خطيبـاً بعـد فتح مكـة فلمـا فـرغ من الخطبـة قـام رجـل من اليمن يـدعى أبـا شـاة فأشـار إلى أنـه لم يستوعب الخطبة فقال عليه الصلاة والسلام : **(اكتبوا لأبي شاة)** (1)٠

كما برر المشككون اعتراضهم على تـدوين السـنة بامتنـاع عـدد من الصحابة عن كتابة أحاديث رسول اللـه ص ، وأشـاروا إلى مـا فعلـه أبوبكر وعمر في ذلك ٠

ومع الفرض جدلاً بصحة هذا فـإن هـؤلاء يعرفـون أن من فعـل ذلـك كان دافعه التقى والورع خشـية أن يكـون الأمـر قـد اختلـط عليـه، فيخطئ فيما ينقله عن رسول اللـه ص خاصـة وأنـه سَـيُرْوَى عنـه،

ويحسـب عليـه، وتأخـذ بـه الأمـة من بعـده، غـير أن عـدداً آخـر من الصحابة لم يمتنع عن رواية أحاديث رسول الله ص بعـد أن سـمعها وحفظها، بل وجد أن تبليغها يُعَدُّ أمانة يجب عليـه أداؤهـا بيانـاً للأمـة فيما فرض عليها من أحكام، وما أمرها بـه ونهاهـا عنـه رسـولها من أقوال أو أفعال ٠

ولما اتسعت الدولة الإسـلامية، وكـثر الـداخلون في دين اللـه وتباعدت المسافات بين أجـزاء الدولـة خشـيت الأمـة من أن يـروى عن رسول الله شيء لم يقله، أو يفعله، أو يقرره خاصة وأنه عليـه الصلاة والسلام قد حذر من الكذب عليه ، فعندئذ وفي نهاية القـرن الأول الهجـري وجـد الخليفـة عمـر بن عبـدالعزيز أن من أول الأولويات تدوين السنة قطعاً لدابر الشك، ومنعاً لأية أحاديث تفـترى على رسول الله ، فكتب إلى واليـه في المدينة قـائلاً: (انظـر مـا كـان مـن حديث رسـول اللـه ص وسنتـه أو حـديث عمـر أو نحـوه فاكتبه لي ، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء) (1)٠

وقد توالت بعد ذلـك كتب الحـديث بعـد أن وثـق أصـحابها أسـانيدها ورجالهـا بـدءاً من ناقلهـا الأول إلى اسـم الصـحابي الـذي رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أهم هذه الكتب موطأ الإمام مالك وصـحيحا الإمـامين البخـاري ومسـلم إضـافة إلى كتب السـنن الأخرى المعروفة ٠

الطريقـة الثانيـة من طـرق التشـكيك ـ الطعن في بعض رواة الحديث : وقد كـانت أم المؤمـنين عائشـة رضـي اللـه عنهـا هـدفاً لهـذا الطعن لأسـباب تبنتهـا بعض الفـرق لأهـداف معروفـة ومبسوطة في كتب التاريخ٠ وكان أبـوهريرة رضـي اللـه عنـه هـدفاً أيضاً لهذا الطعن حين اتهموه بأنه روى أكثر من خمسة آلاف حـديث من (أحاديث الآحاد) ويدرك المشككون أن أم المؤمنين كانت زوجـة رسول الله صلى الله عليه وسـلم ومن الطـبيعي أن تـروي عنـه مـا روته من الأحاديث لملازمتها له كما يدركون أن أبا هريرة كان يلازم

رسول الله صلى الله عليه وسلم متفرغاً لحفظ ما يسمعه منه.

الطريقة الثالثة ـ التشكيك في الفقه الإسلامي : من الواضح أن التشكيك في السنة يهدف في نتائجه إلى المساس بالشريعة الإسلامية عن طريق النيل من الفقه الإسلامي باعتباره العلم الذي يبحث فيها ، ويبيّن أحكامها ودلالاتها، ومقاصدها . وقد اتخذ هذا النيل عدة صور، فمرة ينال المشككون من (الإجماع) ويرون أنه كان محل خلاف بين المذاهب الفقهية . ومرة يتحدثون عن (القياس) ، وأنه كان كذلك محل خلاف بين بعض هذه المذاهب. ومرة ينالون من المذاهب الفقهية الأربعة وأتباعها ، ويرونها سبباً في فرقة الأمة . ومرة أخرى يبرزون الفوارق بين المذاهب، والفرق التي نشأت في بعض العصور ويتخذون من ذلك وسيلة للنيل من الفقه الإسلامي ، وعدم قدرته على وحدة القواعد والأحكام .

وفي هذا الأطار سألني منذ سنتين سائل حسبته (ينقل بحسن نية) ما قرأه وسمعه من هؤلاء المشككين الذين تملأ كتبهم وبحوثهم العديد من المكتبات في الغرب وفي بعض البلاد الإسلامية سأل قائلاً : وما معنى بحثكم في كتب الفقه الإسلامي عن قضية عصرية نعيشها، وما كانت تخطر على بال أحد من الفقهاء الأقدمين ؟

قلت : إن الأمر يختلط على هذا السائل وأمثاله ممن يُعدون هدفاً لحملة التشكيك . والأمر في حقيقته لا يعدو كونه (حملة مرحلية منظمة) تهدف إلى حصر الشريعة الإسلامية في مسائل الأحوال الشخصية ، وإبعادها عن أمور الحياة الأخرى لأهداف أظن القارئ يعرفها جيداً .

ولم يكن هذا أمراً جديداً أو غريباً، فقد واجه الفقه الإسلامي الكثير من الدعاوى والشكوك ، ولكنها مالبثت أن فشلت وبادت كما باد أصحابها. وربما أن التاريخ يعيد اليوم نفسه ومع ذلك فإننا نؤمن إيماناً مطلقاً، أن شرع الله سيظل فوق كل التحديات .

قلـــت : وفي هذه القضية تعمـدت إغفـال الأسـماء لأننـا في هـذه المجلة تعودنا طرح الأمور للبحث بـروح الحـوار والمجادلـة الحسـنة بعيداً عن الإثارة امتثالاً لأمر اللـه لنبيـه في قولـه تعـالى : **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظـة الحسـنة وجـادلهم بـالتي هي أحسـن إن ربـك هـو أعلم بمن ضـل عن سـبيله وهـو أعلم بالمهتدين** (1)٠

ولعل أحد الأخوة الباحثين يبحث هذا الأمر بالتفصيل بياناً للحق حـتى لاتختلـــط الأمـــور على من تتفـــرق بهم الســـبل حين تخفى عليهم الحقائق ٠

والله المستعان

(1) سورة آل عمران من الآية 7 ٠
(2) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي ج4 ص 8 - 51 ٠
(3) الجامع لأحكام القرآن المرجع السابق٠
(1) مسند الإمام أحمد ج 2 ص 832 ، المكتب الإسلامي، وانظر: صحيح البخاري ج1 ص 63 ، دار الكتب العلمية ، بيروت، صحيح مسلم بشـرح النـووي ج9 ص 031 سـنن أبي داود ج 2 ص 212، المكتبة العصرية ، بيروت ، سنن الترمذي ج 5 ص 83 ٠
(1) الموطأ للإمـام مالـك ص 033 ، روايـة محمـد بن الحسـن الشـيباني ، تحقيـق عبـدالوهاب عبـداللطيف ط 1 دار القلم - بـيروت - لبنـان، وانظـر صـحيح البخـاري ج 1 ص 33، دار الكتب العلمية - بيروت٠

(1) سورة النحل الآية 125 ٠